الاتجاه الوظيفي في تعليمية البلاغة « خطبة حجة الوداع أنموذجا »

The Fonctional orientation in teaching rhetoric «Farewell speech sermon model»

د. يوسف يوسفي*
yousfi6060@hotmai.fr
جامعة ابن خلدون – تيارت- (الجزائر)

تاريخ الإرسال: 2019/03/23 تاريخ القبول:2020/08/02 تاريخ النشر: 2020/09/14

ملخص

يعتبر موضوع تعليمية البلاغة الوظيفية من أهم المواضيع الّتي يشتغل عليها جلّ الباحثين في العصر الحالي، وقد جاء مضمون هذا البحث ليكشف عن مفهوم الاتجاه الوظيفي في تعليمية البلاغة وعن أهم المصطلحات والمفاهيم الّتي ارتبطت بها، كالتداولية وتحليل الخطاب وعلم الدّلالة...ثمّ دور تعليمية البلاغة الوظيفية في فهم الخطاب النّبوي الشّريف، ووقع اختيارنا على نص خطبة حجة الوداع نظرًا لمضامينها الهادفة في توجيه وتعليم المسلمين قيم الدين الإسلامي.

الكلمات المفتاحية:

البلاغة ،التعليمية ، الوظيفية ، المفاهيم ،الخطاب .

***ABSTRACT* :**

The subject of teaching functional rhetoric is one of the most important topics of concern to most researchers in the present era. The contents of this research reveal the concept of career orientation in the teaching of rhetoric and the most important terms and concepts associated with it, such as deliberation, discourse analysis, In the understanding of the Prophet's speech, and our choice of the text of the farewell speech sermon because of its contents aimed at guiding and teaching Muslims the values of theIslamic religion.

***Keywords*:**
Rhétoric .DidacticsFunctinal .Concepts .Speech .

المقال:

مقدمة

لقد بدأت البلاغة العربية بدايات ذوقية كما هو الحال بالنسبة لحركة النقد الأدبي، فكانت عبارة عن ملاحظات ودراسات تعتمد على الفطرة والطبع في بداياتها الأولى، وبقيت على ما هي عليه في العصرين الإسلامي والأموي، لكنّها بدأت تميل إلى الناحية التحليلية التي تجمع بين القاعدة والذوق، لأنها استقت مادتها من القرآن الكريم والحديث النبوي أولا ومن الشاهد الشعري ثانيا.

ويعتبر الباعث على القول في البلاغة هو الوجدان والخيال، إذ اتّجه البلاغيون إلى أن علوم البلاغة العربية، من بيان وبديع ومعان، لا تظهر صورتها وقيمتها الحقيقية إلا من خلال التّأثير في المتلقي، وتحقيق أكبر قدر من الإبلاغية إذ لابد للبلاغة من ركنيين أساسيين الأول أن يكون الكلام متلائما مع أوضاع المخاطبين، والثاني أن يكون مؤثرا في النفس حتى تتفاعل وتتجاوب معه.

* المؤلف المرسل

فالبلاغة بقدر ما تحمل من جمال في التركيب والتزويق فهي تعبر عن جانب وظيفي في التعبير عن شؤون الناس الاجتماعية والنفسية والحضارية، فجميع الشواهد في البلاغة تؤول إلى الإمتاع المفيد الباني للفرد والمجتمع، مع تقديم الخدمة المعاقدة عن طريق الإقناع والتأثير.

وقد أوتي صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم، وأيّد بفصاحة المنطق وحسن القول وقوة الإقناع، وبراعة التّفنّن في الأساليب، وقد خصّه الله تعالى بقوة الفصاحة والبلاغة فبلغت بلاغته المنتهى، وأجمع عليها جماهير العلماء، وطوائف الأدباء وعني المسلمون بسنته كعنايتهم بكتاب الله تعالى، وتلقوا خطابه بالرضى وعكفوا على حفظ أحاديثه بالحفظ والشّرح والتّدريس وتدوين أحاديثه ضمن مصنفات.

فالخطاب النبوي الشريف خطاب تعليمي يحقّق الغايات التّشريعية والتّبيينيّة، ومن ثم اختص من بين أنواع الخطاب بجمعه بين التّعليم والإقناع والخطاب تحت مظلّة التّبليغ، وهنا تظهر لنا قيمة الخطاب النّبوي الشّريف في تشكيل البحث البلاغي، لما أصبح لهذا البحث دورًا فعالا في فهم هذا الخطاب، فكيف أسهم الدرس البلاغي في معرفة وجوه الإعجاز في الخطاب النبوي الشّريف؟ وكيف أفاد منها علماء الأصول في استنباط الأحكام الشّرعية؟

العلاقة بين البلاغة والتّعليمية

إنّ ملامح الظاهرة البلاغية لم ترصد في الجانب العربي فقط، وإنمّا تجاذبتها الأطراف في الجانبين الغربي والعربي، وتنازعتها الكثير من الرؤى والطروحات، وهذا أمر مسلم به عقلا ومتقبل علما، ولا مناص من الفرار به، بل والاعتماد عليه، "خصوصا إذا حاولنا أن نبي مقاربة فكرية، المرونة ميزتها والشمولية خصوصيتها، تضرب بجذورها في أعماق التراث، تجول في بساتينه وتستنشق من ريحانه، وترفع عنقها في أعالي الحداثة فتطلّ على شرفات الفكر، فالمقاربة التي نطمح إليها هي الّتي تسمح لنا ببناء نموذج قادر على رصد جميع ملامح الدّرس البلاغي وفق منظور يجمع في طياته روح التّراث ومتطلبات الحداثة، ويأخذ في حسبانه أطراف العملية التّعليمية التّعلمية، مهما اختلفت مستوياتهم وتفاوت أذواقهم "[1]، وتعليم البلاغة أو تدريسها في العصر الحديث كان بطريقتين: طريقة المدرسة القديمة وطريقة المدرسة الحديثة ولكل مدرسة طابعها و منهجها الخاص:

•**طابع المدرسة القديمة**: "والّذي تميّز بتمزيق وحدة البلاغة وجعلها علوما تعرف بعلوم المعاني والبيان والبديع، وتدريسها في عزلة عن الأدب، واتّخاذ الأمثلة من الجمل المقتضبة، والعبارات المتكلّفة والمتصنّعة، مما أدى إلى إخفاقها وقصورها عن تحقيقها لغاياتها في تكوين الذّوق الأدبي لدى الدارسين"[2].

•**طابع المدرسة الحديثة:** "تميز بجعل البلاغة وحدة متكاملة ليس بينها فواصل، ولكن في مجموعها بحوث في مقومات الجمال الأدبي وأسراره الفنّية، والقضاء على العزلة الّتي كانت بين الأدب والبلاغة، مع الاهتمام بتكوين الذّوق الأدبي للطالب وإنضاج حاسته الفنّية، وجعله يستجيب لذلك"[3] ، ويعتبر هذا الطّابع الأحسن؛ حيث جعل للبلاغة صورة وظيفية وأخرجها من نمط التّقعيد الّذي كانت تعاني منه طوال السّنين.

ومع كلّ هذا فالبلاغة ليست "مجرد تدريب الطلبة على القدرات و الخبرات اللّغوية ومعرفة بعض قواعدها والقدرة على تذوق النّص الأدبي، و بيان مواطن الجمال فيه، وإنمّا هي فضلا عن ذلك تدرّب الطّالب على الجانب العاطفي المعنوي"[4] ، والغرض من تعليمها يتجلى في؛ (تمكين الناشئة من استعمال اللّغة في نقل أفكارهم إلى غيرهم بطريقة تسهّل عليهم إدراكها وتمثلها، وتنمية قدرتهم على فهم الأفكار الّتي اشتملت عليها الآثار الأدبية الخالدة وتذوق ما فيها من جمال، ثم زيادة استمتاعهم بألوان الأدب المختلفة من قصة ومقالة وتمثيلية وغيرها)[5] ومن ثم تكون للبلاغة عدة وظائف تنطلق من التذوق والاستمتاع وتنتهي بالمحاكاة والابداع

ماهية الاتجاه الوظيفي للبلاغة

لقد أصبح الحديث عن الوظيفة في تعليمية اللّغات بصفة عامة وتعليمية اللّغة العربية بصفة خاصة موضوعا من مواضيع اللسانيات والبيداغوجيا، والسؤال المطروح: هل أنّنا نتعلم اللّغة لتأدية حاجة ملحة أم نتعلمها لغرض الاستخدام في حالات اجتماعية ما؟، "فقد كثر الحديث في السنوات الأخيرة عن الوظيفة في تعليمية اللّغات مما أدى إلى ظهور مناهج وطرائق تعتمد في دراستها للغة وفي تدريسها على كل ما هو وظيفي، وأوّل استخدام للمصطلح كان في لسانيات **"ترونباتسكوtronbetzkoy"** وتعتبر حلقة براغ اللّسانية بزعامة **"جاكوبسونr.jakbson**"والّتي جعلت من مفهوم الوظيفة أساس منهجها، وقد ارتكز البحث فيها على تحديد دور كل عنصر من العناصر اللّغوية في التّبليغ، وهو بحسبانه امتداد لمذهب **دي سوسير** الّذي ينطلق من تبليغ الوظيفة الأساسية للغة"[6].

إنّ الشيء الّذي جعل علماء حلقة براغ يصنعون هذا المنهج هو "البحث عن وظيفة كل صوت في الكلمة وعن دوره التمييزي في عملية التبليغ"[7] ومن هنا نجد أن ظهور الاتّجاه الوظيفي كان مرتبط باللسانيات.

والمقصود بوظيفية البلاغة، أو البلاغة الوظيفية هي: "البلاغة التي يكون لها هدف ووظيفة، ويكون لدراستها ثمرة ملموسة.. ووظيفة البلاغة تتحدد في كونها أداة توصيل لرسالة أوفكرة معينة على نحو مقنع ومؤثر"[8] والحقيقة أنّ البلاغة العربية منذ نشأتها كانت تمثّل عنصرا فاعلا ومؤثرا في الحياة على اختلاف مناشطها، وتعدد أنماطها، فهي أداة للترّويج والدعاية، والتأثير والإقناع، والسياسة والحكم.

ويتمثّل الهدف من الاتجاه نحو الوظيفية في تعليمية البلاغة العربية في الاتصال بالمتلقي والانتقال به إلى خبرات جديدة تجعله يرى قيمة لما يتعلمه ووظيفة في حياته، إذ يقوم العمل في هذا الاتجاه على الفهم وإدراك المعنى وعلى التخطيط الجيد لبناء المعاني والمدركات والمفاهيم اللازمة، فالاتجاه الوظيفي في تعليم البلاغة العربية اتجاه واقعي نفعي، ومن بين الاتجاهات الّتي تشكل أرضية نحو الوظيفية.

وقد صنف **سعد مصلوح** في كتابه البلاغة العربية والأسلوبيات اللّسانية الاتجاهات الحائزة في البحث البلاغي إلى ثلاثة: "أحدها **اتّجاه أصولي**؛ ينزع إلى معالجة القوانين العامة لظاهرة الأدب، وبيان أصولها الفلسفية والنّفسية، والثاني: **اتّجاه وظيفي**؛ ينزع إلى النظر في النّصوص؛ لالتماس فنون البلاغة واستخراج شواهدها، وتوظيفها في المعالجة النقدية والتقويم الأدبي، والثالث: **اتّجاه تقعيدي**، غايته تمييز حدود واضحة للعلوم البلاغية، وتوزيع مباحث البلاغة بينها، وتحديد الأنواع تحديدا علميا تبعا للنسق المعرفي

السائد في زمانه"[9]. إنّ الباحث يرى أنه منذ البدايات المبكرة للتأليف البلاغي، استوعب الفكر العربي وظيفيةَ البلاغة وفعاليتها في الاتّصال؛ فها هو ذا **بشر بن المعتمر** (ت 210هـ) الّذي "لو أسميناه مؤسس علم البلاغة لم نبعد عن ذلك"[10] ينصّ على نفعية البلاغة، في حديثه عن مدار شرف الكلام وبلاغته، حيث يقول: "إنّ مدار الشرف على الصواب، وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكلّ مقام من المقال"[11].

وكان التركيز على الأثر البلاغي المنشود لدى المخاطب (المتلقّي) أساسَ التّأطير لمفهوم البلاغة الكلّي ومفاهيمها الجزئية، في التراث والمعاصرة، أمّا عن المفهوم الجزئي، فقد ذكر **عبد القاهر الجرجاني** (ت471) أنّ البلاغة هي: "وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها، ثم تبرّجها في صورة أبهى وأزين، وآنق وأعجب، وأحق أن تستولي على هوى النّفس، وتنال الحظ من ميل القلوب"[12]، وبلاغة الكلام عند **الخطيب القزويني** (ت739) هي: "مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته"[13]، وهي **عند الجارم**(ت)1368 "تأدية المعنى الجليل واضحا بعبارة صحيحة فصيحة، لها في النّفس أثر خلاب، مع ملاءمة كل كلام للموطن الّذي يقال فيه، والأشخاص الذين يخاطبون به "[14].

وكما اعتمد مفهوم البلاغة الكلي على الجانب الوظيفي لها، من التّأثير في النفوس، واستمالة القلوب، والأخذ بألباب السّامعين، مع مراعاة حال المتلقي، جاءت المفاهيم الجزئية للبلاغة متّسقة مع مفهومها الكلّي، وذلك واضح في محاولات البلاغيين وصف ما بين أساليب اللّغة وأنماطها التركيبية، وبين الأغراض البلاغية التي تؤديها، وأثرها في النفس؛ فالتّشبيه مثلا يعمل على "تقرير المشبّه في النفس بصورة المشبه به أو بمعناه"[15] و"لأسلوب الكناية دوره في التصوير، وقدرته على إبراز المعاني وأدائها خير أداء، بالإضافة إلى ما فيه من تأكيد لها إذ كل كناية تتضمن حكما مصحوبا بدليله، وذلك أبلغ في تأدية المعنى وتثبيته في النّفس"[16] "والتكرار له وظيفة تجمع مع التوثيق للمعنى، ووقع المساهمة في القصد إليه قيمة صوتية وفنية، تزيد القلب له قبولا، والوجدان به تعلّقا"[17]...إلخ .

وهكذا، حاول البلاغيون قديما وحديثا رصد الآثار النّفسية لأساليب العربية وأنماطها التركيبية، بما يمكن الاعتماد عليه في توظيفها في المجالات المختلفة التي تقوم على الإقناع والتّأثير، "وكل ضروب البلاغة المعروفة في علومها الثلاثة: المعاني، والبيان، والبديع، هي أدوات توصيل يختار منها المنشئ ما يراه ملائما لفكرته، ومناسبا للموقف، ومطابقا لحال المخاطب، والبلاغة العربية لا تقتصر على كونها قواعد يستذكرها طلاب العلم، ولكنها تجاوز هذا إلى تقويم ما اعوجّ من ألسنتهم، وإصلاح ما فسد من أذواقهم"[18].

ويمكن القول بأنّ البلاغة العربية منذ نشأتها الأولى ارتكزت على أسس وظيفية، حيث تركّزت دراسات البلاغيين جلّها على محاولة وصف ما بين اللغة ووظيفتها من ترابط، وانصبّت تلك الدراسات على رصد العلاقة بين أنماط التراكيب والأغراض البلاغية التي تؤديها، وعلى خصائص التراكيب وأغراضها التأثيرية والاتصالية.

وقد ارتبطت البلاغة في دراساتها الأدبية بمجموعة من المصطلحات والمفاهيم الّتي ساهمت بشكل فعال في ابراز جانبها الوظيفي، والّتي حدّدت مجالها وكوّنت في مجموعها علامات بارزة في دراسة الابداع، وتوضيح

الآليات الّتي يسلكها المبدع في التّعبير واستثمار اللّغة في أداء تجربته الابداعية وتواصله مع المتلقّي، **ومن بين المصطلحات الّتي أسهمت في وظيفية البلاغة نذكر ما يلي:**

1. التّداولية Pragmatique:

"إنّ العلاقة بين البلاغة والتّداولية تتمثل في رصد كيفيات ايصال المعنى إلى المتلقي، لأنّه هو الّذي يعيد انتاج الرّسالة من خلال فعل القراءة، ولابد من أن يتمكن من فك شفرة هذه الرّسالة، ولا يكون ذلك إلاّ بإعادة تحليلها وفق الفهم"[19]، إذ أنّ التّداولية تدرس مستويات استعمال اللّغة في طبقاتها الإفهامية المختلفة، كما أنّها تعتمد على اللّغة كأداة لممارسة الفعل على المتلقي، على أساس المقولة الشّهيرة في البلاغة " لكلّ مقام مقال" وفي التداولية " مراعاة الموقف الخطابي أو سياق المقال"، ومن مهام التّداولية دراسة اللّغة ضمن مستويين:

- المستوى الأوّل: هو الاستعمال الحرفي للّغة؛ أي أنّ الكلمة لا تخرج عن معناها الاصطلاحي المتعارف عليه؛ فإذا قلنا مثلا: "شربت كوبا من الماء" فهي لغة عادية، فكلمة "الشّرب" هنا وضعت في موضعها، وهذا كلام مستقيم حسن.

- المستوى الثاني: هو الاستعمال غير الحرفي للّغة؛ بمعنى وضع اللّفظ في غير ما وضع له، فإذا قلنا مثلا: "شربت الهموم"، فإن الهموم لا تشرب، و"هذا المستوى هو الّذي يحقّق للّغة الفعالية والتّأثير في المتلقّي"[20].

"وقد عدّ المنهج التّداولي أنجع وسيلة إجرائية لمقاربة النّص الخطابي، حيث سمح بتوضيح السبل الحجاجية الّتي تنجح إلى الابتعاد عن الاستدلال البرهاني والمعتمدة في الاقناع والتّأثير والاستمالة، فضلا عن أنّه كشف جوانب مقام الخطاب، ومن ثمّ ابراز مقاصد المتكلّم وأثرها في المتلقّي"[21].

2. الأسلوبية Stylistique:

تهتم الأسلوبية بدراسة الأسلوب الأدبي وخصائصه ومميزاته، فهي تدرس الصورة الشّعرية، والايقاع وقضايا التّركيب، كما أنّها تدرس النّظام اللّغوي ومكوناته للوصول إلى تحقيق الأثر الجمالي الكامن في النّصوص الأدبية؛ فهي بذلك تستفيد مما قدمته البلاغة من اجراءات في فهم طبيعة تشكيل النّصوص الأدبية، "وهذا التّصوّر للنّظرية الأسلوبية يشير إلى أنّ البلاغة تعدّ منجما تغرف منه الأسلوبية ما تعتبره صالحا ليغني مقاربتها للنّص"[22]، فالفكرة الغربية الحديثة الّتي تعتبر البلاغة وليدة للأسلوبية هي فكرة خاطئة؛ لأنّ الأسلوبية ظهرت لها بوادر مسبقة في نظرية النّظم عند عبد القاهر الجرجاني حين عبّر عنها بقوله:" الأسلوب هو ضرب من النّظم والطريقة فيه"، وهنا تبرز وظيفة البلاغة الّتي تؤديها في التّحليلات الأسلوبية؛ إذ لا يمكن أن يخلو أي تحليل أسلوبي من المباحث البلاغية الّتي أصبحت تدرج ضمن المحددات الأسلوبية(الانزياح، التركيب، الاختيار).

3. الخطاب Discours:

تعرف البلاغة في الدراسات المعاصرة على أنّها: "علم الخطاب اللاحتمالي الهادف إلى التّأثير أو الاقناع أو هما معا ايهاما أو تصديقا"[23]، فالارتباط البلاغة بالخطاب ارتباط وظيفي؛ أي من أجل وظيفة الاقناع وتحويل الخطاب إلى فعل عملي، وعلى هذا يعرف ريكور البلاغة بأنّها: "تقنية للخطاب الاقناعي أي أنّ الفن البلاغي

هو فن للخطاب الفعال والمؤثر، وفي هذا المستوى أيضا كما هو الحال في مستوى الفعل الكلامي؛ يعد القول بمثابة **فعلacte** ، فالخطيب يسعى إلى الحصول على رضا مستمعيه، ودفعهم إن اقتضى الحال إلى التّصرّف في الاتّجاه المرغوب فيه، وبهذا المعنى تكون البلاغة إنجازية وتأثيرية في وقت واحد"[24]، وأنّ كل خطاب يسعى إلى اقناع من يتوجه إليه، وبهذا تكون البلاغة قد بسطت سلطتها على العوالم الّتي تفتحها اللّغة من خلال وظائف الاقناع والفهم والايجاد.

4. انتقال الدلالة:

إنّ انتقال الدلالة محور رئيسي من المحاور التي تستند إليها إبلاغية القول، والّتي نتجت عن الانتقال من المعنى الحقيقي إلى المعنى المجازي، مما يؤدي إلى تغير أو انتقال في معاني ودلالات المفردة، بحيث يكون وقع الكلمة وتأثيرها في المتلقي أكبر، وذلك من خلال تضافر المفردات فيما بينها، في إطار الصورة الفنية، "كما أن انتقال الدلالة في الكثير من الأحيان يكون مقصودا من المتلقي، يروم من خلاله اللجوء إلى أساليب فنية من شأنها زيادة الشحنات الإبلاغية للمفردة، و بالتالي زيادة الشحنات في الصورة الفنية بشكل عام"[25].

ومن بين المفاهيم الّتي أسهمت في وظيفية البلاغة ما يلي:

1. الاستجابة: Response

من المصطلحات المرتبطة ارتباطا وثيقا بالإبلاغية مصطلح الاستجابة؛ بمعنى مدى تفاعل المتلقي مع النص الإبداعي فالمتلقي ليس طرفا مستهلكا للنص، بل عنصرا منتجا وحيويا في جميع مراحل الخلق والإبداع، حتى أن بعض النقاد يرى أن التحليل الأسلوبي للنص الإبداعي، يجب أن لا ينطلق من النص مباشرة، وإنمّا ينطلق من الأحكام التي يبديها المتلقون حوله، لأنّ الأحكام عبارة عن مثيرات أو استجابات نتجت عن منبهات وشحنات إبلاغية كامنة في صلب النص[26].

2. الانزياح: Displacement

يعد ملمحا رئيسا في إبلاغية الشاهد البلاغي، الّذي يحاول فيه الشاعر غاية جهده استثمارا اللغة بكل طاقاتها وإمكاناتها التعبيرية، فتتجلى قدرته الخاصة على التلذّذ والتّأثر بجرأته وطريقته في الأداء "مما يفضي في النهاية إلى خلق بنية جمالية كاشفة، تكشف عن خصوصيات المبدع وتفرّده"[27].

3. الأسلوب: Style

ترتبط دراسات الطاقات الإبلاغية للغة بالأسلوب، فالأسلوب هو الميدان الذي يتناول القيم الإبلاغية للغة الّتي من شأنها إحداث التّأثير الّذي يتوخاه المبدع، "فالمبدع بإمكاناته الخاصة قد يستطيع أن يخلق أشكالا من الأداء لا تقدمها له الّلغة في مواضعتها"[28].

4. السياق thecontext:

يدخل مصطلح السياق، أو العلاقة بين المفردات المعجمية ضمن المصطلحات التي تعالجها الإبلاغية في مفهومها العام. "فالكلمة الواحدة يتفاوت أمرها حسنا وقبحا، قبولا ونفورا باختلاف السياق الّذي ترد فيه"[29]، فالسّياق ضروري في البلاغة ويعني على مستوى الكلام هو: "المحيط الّلسانيلوحدة لغوية، ويقصد

بهذا المحيط هنا مجموع العناصر الحاضرة بالفعل في النّص بجوار مباشر أو بعيد عن الوحدة المعتبرة، ومن ثمّ فإنّ العناصر الّتي تشترط الحضور، والشّكل والوظيفة والمعنى لهذه الوحدة تنتسب إلى السّياق الملازم"[30].

5 القصدية: Intentional

عرّف ابن منظور في لسان العرب القصد فقال: "القصد: استقامة الطّريق، قصد يقصد قصدًا فهو قاصدٌ، وقوله تعالى: **"وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ"**[31]، أي على اللّه تبيين الطّريق المستقيم والدّعاء إليه بالحجج والبراهين الواضحة، وفي الحديث القصدَ القصدَ تبلغوا، أي عليكم بالقصد من الأمور في القول والفعل"[32]، أمّا ابن جني فقد تعرّض إلى ذكر الجذر اللّغوي لمصطلح القصدية، فيقول: "أصل (ق ص د) وموقعها في كلام العرب الاعتزام والتّوجّه والنّهوض نحو الشيء على اعتدال كان ذلك أو جور، هذا أصله في الحقيقة وإن كان يخصّ بعض المواضيع يقصد الاستقامة دون الميل، ألّا ترى أنّك تقصد الجور تارةً، كما تقصد عدل أخرى، فالاعتزام والتّوجه شامل لهما جميعاً"[33]. فمن الملاحظ أن العرب قد أدركوا مفهوم القصدية، وقد ربطوها بالفعل والممارسة، فإدراكها يظهر من خلال الأثر الّذي تحدثه، وكذا موقعها في الخطاب، وهو ما يستدعي التّدرج في البحث عن مقاصد كل خطاب مادام يحمل كتلة مقاصدية يرومها من خلال البنية اللّغوية له، فإنتاج الخطاب البلاغي مرهون بفهم وافهام مقاصد المرسل الّتي تبلور العلاقة بينه وبين المرسل إليه، باعتبار أنّ البلاغة تراعي مقتضى الحال في ايصال المعنى إلى قلب السّامع.

البلاغة الوظيفية ودورها في فهم الخطاب النبوي الشريف:

إنّ الخطاب النبوي الشريف، نص أدبي بلغ الذروة من البيان والجمال، ولا يرتفع فوقه في مجال الأدب الرفيع إلاّ كتاب الله، فليس من العجيب أن يوليه العلماء منذ القدم أهمية بالغة، للكشف عن المعالم الجمالية في لفظه ومعناه وصوره وتراكيبه، وقد عجز البلغاء في وصف فصاحته، وكان من أجمل ما قيل فيه قول الجاحظ: "هو الكلام الّذي قلّ عدد حروفه، وكثر عدد معانيه وجلّ عن الصّنعة ونزه عن التّكلّف... ثمّ لم يسمع النّاس بكلام قط أعمّ نفعًا، ولا أصدق لفظًا ولا أعدل وزنًا، ولا أجمل مذهبًا، ولا أحسن مرفعًا ولا أسهل مخرجًا ولا أفصح من معناه، ولا أبين في فحواه من كلامه صلى الله عليه وسلم".[34]

فالنبي صلى الله عليه وسلم اتّصف ببراعة فائقة في اختيار ألفاظه، ومراعاة الفروق اللغوية الدقيقة بين معاني الكلمات، فيضع كلّ نوع منها "موضعه الأخص الأشكل به الّذي إذا أبدل مكان غيره، جاء منه إمّا تبدل المعنى الّذي يكون منه فساد الكلام، وإمّا ذهاب الرونق الّذي يكون معه سقوط البلاغة"[35]، فالبلاغة الوظيفية كانت تعليمية بالدرجة الأولى، فلم يصدر قول عن النبي "ص" إلّا وفيه حكمة ووظيفة بين البشر يقول عليه الصلاة والسّلام في ذلك: "إنّ ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيثٍ أصَابَ أَرضًا، فكَانَ مِنْهَا طَائفةٌ قبلَت الماءَ فَأَنبَتَتْ الكَلأَ والعُشْبَ الكَثيرَ" رواه الشيخان البخاري ومسلم.

تعريف موجز بالخطبة:

هذه الخطبة ألقاها الرسول "ص" في حجة الوداع في التّاسع من ذي الحجة يوم عرفة، فوق جبل الرحمة وكانت في السنة العاشرة للهجرة، وهي آخر حجة شهدها النّبي صلى الله عيه وسلم، حيث حضرها مائة وأربعة وأربعون ألفًا من النّاس، وقد نزل فيها الوحي مبشّرا إيّاه[36] "اليَومَ أَكْمَلْتُ لَكُم دِينُكُم وَ أَتْمَمْتُ

عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضيت لَكُم الإسلام دِينَا"[37]، وعندما سمعها عمر بكى، فقيل له ما يبكيك؟ قال: إنّه ليس بعد الكمال إلّا النقصان، وكأنّه استشعر وفاة النّبي صلوات الله عليه[38].

وتعود تسميتها بخطبة الوداع أو حجة الوداع إلى كون الرسول ودّع فيها المسلمين بالوصية الّتي أوصاهم بها، وفي رواية عن ابن عمر رضي عنهما قال: وقف النبي صلى الله عليه وسلم يوم النّحر بين الجمرات في الحجة الّتي حج بهذا، وقال: "هذا يوم الحج الأكبر" فطفق النّبي صلى الله عليه وسلم يقول: "اللّهم اشهد، وودع النّاس"، فقالوا: "هذه حجة الوداع"، وتعد خطبة الوداع من التّراث الإسلامي التّشريعي الحضاري حيث جمعت بين الوعظ والتشريع فكانت اللمسات الأخيرة للبناء الحضاري الإسلامي واكتمال التشريع، وقد بين فيها الأحكام الشرعية الجنائية والمالية والعلاقات الأسرية والإنسانية.

المضامين البلاغية الوظيفية في حجة الوداع:

- ✓ بدأت هذه الخطبة باستفتاح مملوء بالثّناء والحمد لله والإقرار بالألوهية له وحده وكان ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم في هذه الخطبة "الحمد للّه نحمده ونستعينه ونستغفره..... وأشهد أنّ لا إله إلّا الله وحده لا شريك له".
- ✓ وقد استهلّ الرسول صلى الله عليه وسلم خطبته بنداء في قوله: "يا أيّها النّاس: اسمعوا قولي، فإنّي لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدًا فنلاحظ أنّ هذا النّداء كان قريبًا لنفوس المسلمين لعدم استخدام الأداة "يا" وحذفها حقّق التّلاحم والتّقارب، فكأنّ النّاس قريبون إليه يناديهم بأرق النّداء وأعذبه ليستميل قلوبهم إلى ما يلقى عليهم من حسن التّوجيه والإرشاد.
- ✓ وقد أراد صلى الله عليه وسلم أن يثبت حرمة الدّماء والأموال في حكمها المغلق فاستعان بحرمة ثابتة في عقول المخاطبين عن طريق استخدام أداة التّشبيه الكاف الّتي سهلت عليه عملية الربط بين الحرمتين السّابقة واللاحقة في قوله "إنَّ دِمَاءَكُم وأموالكم حَرَامٌ عَلَيْكُم إلى أَنْ تلقوا رَبَكُم كحُرْمَةِ يَوْمِكُم هَذَا في بَلَدِكُم هَذَا..." والثاني في قوله عليه الصلاة: "إنَّ الزّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَةِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَوات والأرض"، وهنا تبرز وظيفة أداة الكاف في إقامة الحجة والبرهان على قطيعة حرمة هذه الأموال والدماء، وكان الغرض من هذا التّشبيه تغليظ الحرمة، وقد زاد من تأكيد ذلك المؤكد "إنّ"، كما أنّ تكرار اسم الإشارة "هذا" أفاد توكيد الحرمة الأولى المتمثلة في الدّماء والأموال، لأنّه يبني على تنبيه ما هو حرام بالنّص المعروف مسبقًا لدى المخاطبين.
- ✓ كما جاء خطاب نص حجة الوداع إقناعيًا يتناول موضوعات مختلفة تنصب كلّها في التّشريع الإسلامي، والقصد من إلقائها تنظيم العلاقات بين الأفراد في سبيل بناء مجتمع إسلامي راسخ القواعد وثابت الأركان، فلم يسع المجال لاستعمال المحسنات البديعية فيها وتوظيف التّصوير البياني لتقريب الفكرة كما جاء خطاب نص حجة الوداع إقناعيًا يتناول موضوعات مختلفة تنصب كلّها في التّشريع الإسلامي، والقصد من إلقائها

تنظيم العلاقات بين الأفراد في سبيل بناء مجتمع إسلامي راسخ القواعد وثابت الأركان، فلم يسع المجال لاستعمال المحسنات البديعية فيها وتوظيف التّصوير البياني لتقريب الفكرة إلى المخاطب والتّأثير فيه.

- ✓ ومن الأساليب الإنشائية الّتي تضمنتها خطبة حجة الوداع أسلوب الحوار الّذي يعدّ أكثر الرّكائز الأساسية الّتي يقوم عليها الحجاج في البلاغة، ونمثّل له في خطبة النّبي بقوله صلى الله عليه وسلم: "ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد. قالوا: نعم. قال فليبلغ الشّاهد الغائب"، كما تعدّدت الآليات اللّغوية في هذه الخطبة من تكرار وتوكيد وتوظيف للأفعال الكلامية من (الأمر، النهي، الاستفهام، النّداء والشّرط) قصد الإفهام ولفت الانتباه والدور الحجاجي لهذه الأفعال سواء كانت انجازية أو خبرية في كونها توجّه القول حجاجيًا.
- ✓ وقد جاء قوله صلى الله عليه وسلم مشدّدًا على فكرة تبليغ رسالة الله وحثّ المسلمين على تبليغ هذه الرّسالة من بعده، وذلك في سلسلة توليدية يصير فيها المبلّغ مبلّغًا، تحمل في طياتها تواصلاً حميميًا فيما بين أفراد هذه السلسلة، ركّز النبي فيها على المتلقي النّاقل للرّسالة وهي الفكرة الّتي تعوّل عليها التّداولية حديثًا من خلال مبدأ التّعاون وذلك بإقامة الحجة عليهم في ضرورة تبليغ الرّسالة والتّركيز على وظيفية الخطاب.

وفي نهاية هذه القراءة لنص خطبة حجة الوداع يجدر القول أنّ خطاب النّبي يصلح تماما ليكون أنموذجا تعليميا يحتذى به الشّباب الطامح إلى اعتلاء المنابر، إذ تعطيهم مجموعة من المقومات الّتي تجعلهم أكثر تأثيرًا وإقناعًا على رأسها المناسبة للمقام، فالتّصوير في الخطبة كان إقناعيًا يفي بفكرة المزج بين الإبلاغ والجمال، ممّا حقّق لهذا الخطاب البلاغي النّبوي ديمومة وظيفية لا تنقطع، فقد كان للبناء الوظيفي للخطبة دور كبير في التّواصل معها أولاً، ثمّ الاستجابة لأطروحتها ثانيًا، وقد أسّس النّبي "ص" لهذا المكون من منطلق أنّ الخطبة خطبة مودّعٍ.

مراجع البحث:

[1] ينظر: مجلة اللغة والاتصال يصدرها مختبر اللغة العربية والاتصال، جامعة وهران، العدد 1، أكتوبر،2005، ص:116[1]

راتب قاسم عاشور، أساليب تدريس اللغة العربية، ص:115[2] .

المرجع نفسه، ص:157[3]

عبد الرحمان علي الهاشمي، وفائزة محمد فحري العزاوي، تدريس البلاغة العربية، ط1، دار مسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن، 2005، ص: 116[4]

المرجع نفسه، ص:119.[5]

[6] ينظر: محسن عطية، الكافي في أساليب تدريس اللغة العربية، المرجع السّابق، ص: 168.

[7] شريف حمدان، اللغة وظيفية أم تعليم وظيفي، مجلة العلوم الإنسانية، العدد 03، أكتوبر 2002، ص:135.

[8] محمد شادي، البلاغة الوظيفية، ط1، دار اليقين للنشر والتّوزيع، المنصورة، مصر، 2011، ص:6.

[9] سعد مصلوح، في البلاغة العربية و الأسلوبيات اللّسانية آفاق جديدة، لجنة التّأليف والتّعريب والنّشر، مجلس النّشر العلمي، الكويت، 2003، ص:28.

[10] أحمد أمين، ضحى الاسلام، دط، القاهرة، دت، ج1، ص:141.

[11] الجاحظ، البيان والتّبيين، تح: عبد السّلام هارون، دط، دار الجيل، بيروت، لبنان، دت، ج1، ص:136.

[12]عبد القاهر الجرجاني، دلائل الاعجاز، تح: محمود محمد شاكر، ط3، المدني، القاهرة، 1992، ص:43.

[13]القزويني، الايضاح في علوم البلاغة، شرح محمد عبد المنعم الخفاجي، دط، القاهرة، دت، ج2، ص:06.

[14]علي الجارم، البلاغة الواضحة، ط23، دار المعارف، القاهرة، 1969، ص:8.

[15]يحي بن حمزة العلوي، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، تح: محمد عبد السلام شاهين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995، ص:131.

[16]عبد الغني بركة، أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجا، ط1، مكتبة وهبة، القاهرة، 1983، ص:86.

[17]عز الدّين علي السّيد، التّكرير بين المثير والتّأثير، ط1، دار الطّباعة المحمدية، القاهرة، 1978، ص:86.

[18]محمد شادي، البلاغة الوظيفية، المرجع السّابق، ص:6.

[19]سليمان بن سمعون، البلاغة وعلاقتها بالتداولية والأسلوبية وعلم النّص، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، قسم اللّغة العربية وآدابها، جامعة غرداية، العدد 17، 2012، ص:46.

[20](ريول آن)، (موشلار جاك)، التداولية اليوم (علم جديد في التّواصل)، تر: سيف الدّين دغفوس، ط1، دار الطليعة للنشر والتّوزيع، بيروت، 2003، ص:18.

[21]ابتسام بن خراف، تلقي النص البلاغي عند الدكتور محمد العمري (مقاربة وصفية تحليلية)، مجلة قراءات، مخبر وحدة التّكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها، جامعة بسكرة، العدد 5، 2013، ص:51.

[22]ينظر: صابر الحباشة، من قضايا التّفكير اللّساني في النّحو والدلالة واللّسانيات، ط1، دار صفحات، سورية، 2009، ص:31.

[23]محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتّداول، افريقيا الشّرق، المغرب، 2005، ص:06.

[24]محمد سالم محمد الأمين طلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصر، ط1، دار الكتاب الجديد، لبنان، 2008، ص:103.

[25]نادر عبد الرحمن محمد الوقفي، الإبلاغية في الشاهد البلاغي (دراسة وتحليل)، رسالة دكتوراه، إشراف: زهير المنصور، جامعة مؤتة، 2007، ص:05

[26]نادر عبد الرحمن محمد الوقفي، الإبلاغية في الشاهد البلاغي (دراسة وتحليل)، المرجع السابق، ص:06.

[27]غرام محمد، الأسلوبية منهجا نقديا، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1989، ص:11.

[28]عبد المطلب محمد، بناء الأسلوب في شعر الحداثة، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1995، ص:14.

[29]السيد شفيع، الاتجاه الاسلوبي في النقد الأدبي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1986، ص:136.

[30]عبد الجليل مرتاض، التّحليل البنيوي للمعنى والسّياق، دار هومة، الجزائر، 2010، ص:06.

[31]سورة النّحل، الآية: 16.

[32]ابن منظور، لسان العرب، المجلّد 3، دار صادر بيروت، لبنان، 1990، ص253.

[33]المرجع نفسه، ص:268.

[34]الجاحظ، البيان والتّبيين، تح: فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، لبنان، 221/2.

[35]محمد الخطابي، بيان إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف مصر، ط4، ص29.

[36]أبو بكر جابر الجزائري، هذا الحبيب يا محبِّ محمد رسول الله "ص"، ص: 302، 303.

[37]سورة المائدة، الآية: 3.

[38]عبد الجليل عبده شلبي، فنّ الخطابة وإعداد الخطيب، ص:182، 183.